

## إحياءات الدعاء التربوية



للدعاء دور تربوي عميق على صعيد التطلع الروحي للإنسان وانفتاحه على الله سبحانه وتعالى، بحيث يعيش الإنسان، في أجواء المناجاة، سرَّ التوحيد الإلهي في حركة مشاعره الإنسانية، وفي علاقة حاجاته بالله وانفصالها عن غيره، في عملية إحياءٍ داخلي بأنَّ التوجُّه إلى غير الله في حاجاته، حتى في ما يشبه الخطرات الفكرية أو النزعات الغريزية، يمثِّل لوناً من ألوان الإنم الشعوري الذي يسيء إلى الاستقامة الروحية. وهذا ما نتمثِّله في دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) في طلب الحوائج إلى الله، حيث يقول: «اللَّهُمَّ يا منتهى مطلب الحاجات، يا من عنده نيل الطلبات، يا مَنْ لا يبيع نعمه بالأثمان، يا مَنْ لا يكدر عطاياه بالامتنان، يا مَنْ يُستغنى به ولا يُستغنى عنه، يا مَنْ يرغب إليه ولا يرغب عنه، يا مَنْ لا تفني خزائنه المسائل، يا مَنْ لا تبدل حكمته الوسائل، يا مَنْ لا تنقطع عنه حوائج المحتاجين، يا مَنْ لا يعتذيه دعاء الداعين».

إنَّ هذا الدعاء ينطلق ليركّز في ذهنية الإنسان الفكرة التي تفتح على الكلاسي القدرة، الكريم في العطاء، الواسع في النعماء، الذي لا يضيق كرمه عن سؤال أحد، كما أنَّ يده بالعطايا أوسع من كلِّ يد، والذي يُستغنى به ولا يُستغنى عنه، ويُرغب إليه ولا يُرغب عنه. كما يفتح على الإنسان المحتاج إلى

ربّه، لأنّ ذلك ليس شيئاً ذاتياً ينطلق من سرّ الغنى في شخصه، بل هو شيءٌ طارئ، يستمدّه من عطاء ربّه، في ما يمنحه من قدرة، أو يعطيه من إمكانيات.

من الأمور الأساسية في استجابة الدعاء هو التوبة إلى الله سبحانه تعالى، وحضور القلب، وعدم القيام، فقد ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «اعلموا أنّ الله لا يقبل دعاء عن قلب غافل». وجاء أيضاً في حديث الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) عن سليمان بن عمرو قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: «إنّ الله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاء يظهر قلب ساهٍ، فإذا دعوت فاقبل بقلبك ثمّ استيقن الإجابة». وجاء أيضاً في وصيّة أمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) لابنه الحسن (عليه السلام): «ولم يمنعك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيّرْك بالإنابة ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنك عشراً، وفتح لك باب المتاب». يبيّن (عليه السلام) في هذا المقطع كرمه سبحانه وجوانب اللطف في تشريع الدعاء، فإنّ يعلم أنّ كلّ إنسان معرض للخطأ والزلل والوقوع في الشبهات والمحرمات، فلم يستعجله بالعذاب على ذلك بل فتح له باباً من أبواب الرحمة ليتوب ويرجع إلى الله.

وإذا كان الإنسان؛ كلّ إنسان، في موقع الحاجة إلى الله، فكيف يتوجّه الإنسان الواعي إلى مثله ليرفع حاجته إليه، وهل ذلك إلّا لونٌ من ألوان الغفلة عن حقيقة الفقر الإنساني أمام حقيقة الغنى الإلهي، بالإضافة إلى أنّها زلّةٌ من زلل الخاطئين، وعثرةٌ من عثرات المذنبين، لأنّها خطيئةٌ تتصل بالانحراف عن خطّ الاستقامة في التصوّر التوحيدي للإنسان، وبالخلل في الوعي الإيماني للحقيقة الإلهية في معنى وجود الإنسان وحركته، وفي سعة القدرة وشموليتها، وهكذا تتبلّور لدى الإنسان مسألة الاستعانة بالله وحده، بعيداً عن الاستعانة بغيره. إنّ هذا الدعاء يعالج المسألة في الدائرة الفكرية النظرية على أساس إثارة مسألة الحاجة الذاتية لدى الإنسان في جميع مواقعه وأشكاله، لتكون رادعاً عن توجّه الإنسان إلى مثله، وغفلته عن توجّهه إلى ربّه.

وفي دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام): «اللّهمّ سدّ فقرنا بغناك اللّهمّ غيّر سوء حالنا بحسن حالك»، فالدعاء بهذا المعنى هو صدى وانعكاس حقيقي لمشاعر الفاقة، والعجز الذي يغمر الإنسان، وترجمة واقعية لعبودية الإنسان، وارتباطه بخالقه، فقد ورد في موارد الدعاء: «أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري». إذن الدعاء هو الذي يجرّ في الإنسان شعوره بالعبودية والرهبة إلى سبحانه، فلذا عُدّ الدعاء من أفضل أنواع الوعي الذاتي الذي يستذكر فيه الإنسان أصالته وعبوديته، يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام): «إلهي أصبحت وأمست عبداً داخراً لك لا أملك لنفسي نفعا»

ولا ضراً إلّا بك». فالدعاء هو مفتاح خزائن الله، خزائن ملكوت الدنيا والآخرة، وهذا المفتاح يسّره الله تعالى للإنسان، وجعله في متناول يده، من غير شفيعٍ أو وسيط.